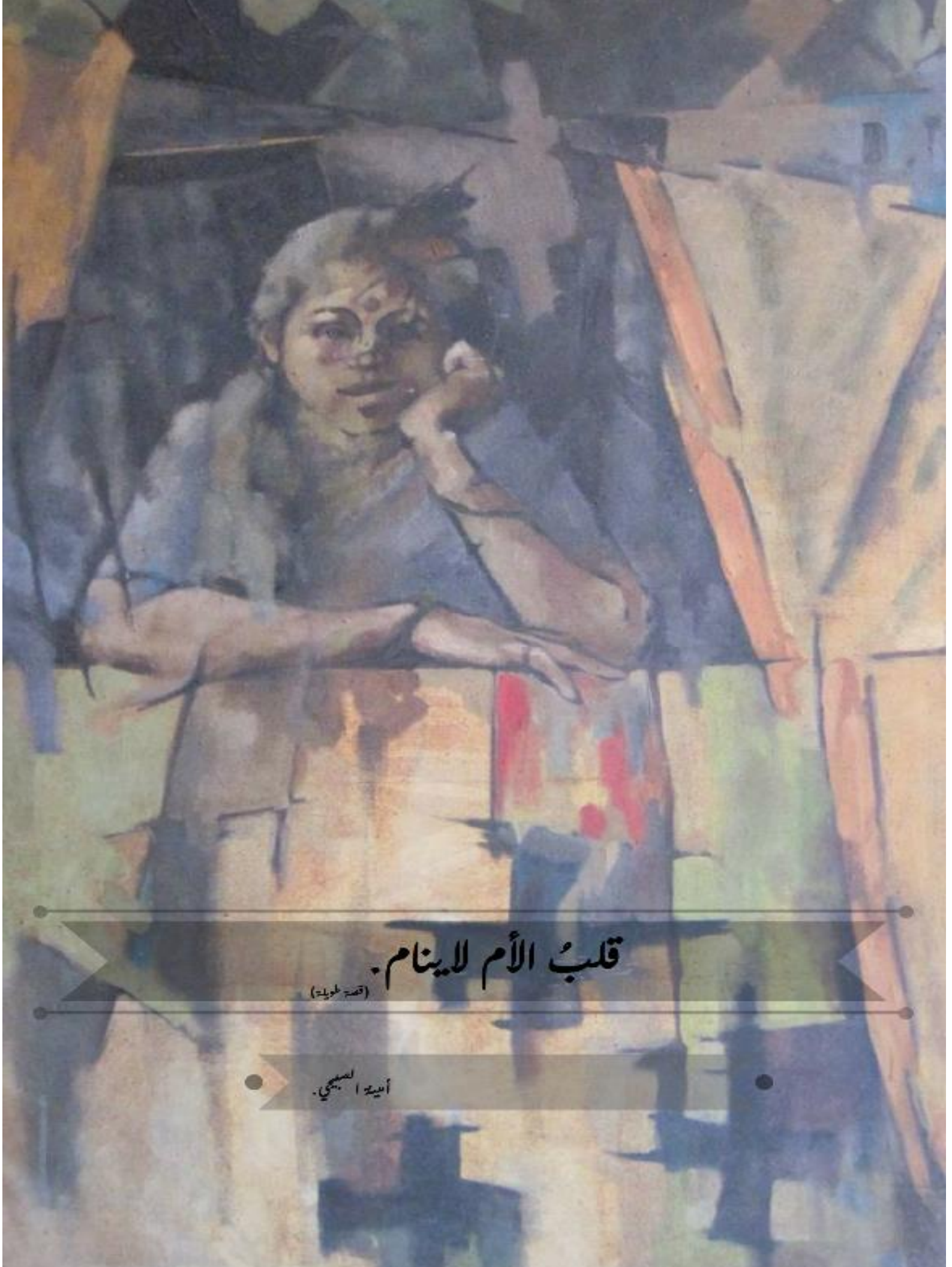

قلبُ الأم لاينام.

(قصة طويلة)

أمينة الصبيحي.

لكنّه قلبُ الأمّ لاينام.

قصّة*

لوحة الغلاف: أم تنتظر طفلها..

للرسام الهندي أشيس كباسي.

سماء مدينتي تُعاني..

في رشفة قهوة،

أرفعُ رأسي لأجد تلك السماء الزرقاء

تُغطّيها سُحُبٌ سوداء.

إنّه إبتلاء

مالذي حدث؟

مالذي حدث؟

كل شيء مؤقّت! حتّى لون السماء.

ولطالما تسألت هل يرى صُنّاع الحروب الدمار الذي يخلفونه وراءهم، أم أنهم يرونه إعمارًا من نوعٍ خاص؟.. وليس دمار المباني والمنازل والقصور ما أتحدث عنه فقط! بل دمار الأنفس والعقول والأجساد المتعبة من كل هذا.

إنهم يتغاضون عن كل شيء بإسم السلام.

*

"نحنُ مضطرّون للمحاربة" هذا ما كان يردده المذيع في الراديو كل صباح. نحن ملزمون بالمحاربة والقتال للبقاء على قيد الحياة، لنكتشف فيما بعد أنّ مابدأنا به مابقيَ منه إلا القليل عند خط النهاية، وأن لحظات النصر الأخيرة في الساحات والشوارع والرقصات والتصفيقات والألعاب النارية.. ماهي إلا لحظات هزيمة أثناء عودتنا لمنازلنا وإغلاق الأبواب ليلًا.

*

وتُنجب الأمهات أبنائها وتفرح بهم، لتجهزهم لهذه الأيام السوداء. لتأخذهم منهن في لحظات فاجرة رصاصة طائشة، وقنبلة موقوته مختبئة أسفل الستائر.. لتبتلعهم الحرب.

*

والحرب.. نعم الحرب لم تبدأ اليوم أو البارحة، بل منذ أربع أعوام. أينما تذهب في شوارع مدينة بنغازي، تجد العيون تحملق بك. وتنظر إليك وإن كانت لا تنظر حقًا. مَخَافةَ أن تُغتال من وراء ظهرها.

*

والأرواح هُنا جاهزة للصعود مباشرة للسماء، في غفلة منّا جميعا.
أرواحٌ معلقة مابين هذا وذاك.
جاهزة لكل شيء منتظرة إشارة من قاتلها لتكمل حياتها في الصعداء.

*

وترى كراسي المقاهي خالية من أصحابها الذين تعودت مآنستهم كل مساء، تفتقد ضحكاتهم وطقطقاتهم على رؤوسها.
وفناجين القهوة والشاي يُغلفها الغبار على المنضدة، تنتظر عودة صاحبٍ لها تعوّد المجيء وإحتضانها كل مساء.
ومابقي من الأصدقاء يلتفون حول بعضهم يعاودون ذكرياتٍ مضت بينهم وبين الفقيد، ينهون الحوار بالوداع ليقف كل منهم في زاوية من زوايا الشارع، يمسح الدموع المنهمرة، ويُكمل المسير تاركًا وراءه تلك الأرواح والكراسي والفناجين.

*

وتفتحُ الأم غرفة إبنها لتجلس على الكُرسي، تُطالع الفرشة وتتلحّف بالغطاء العفِن المُختلط برائحته الأخيرة، وتقوم بفتح الخزانة لإعادة ترتيب ملابسه وتعليقها للمرة الثانية في نفس الشهر، منتظرة دخوله إلى الغرفة في أي لحظة.

*

كُلها لحظات، كل شيء يُحيط بنا ماهو إلا لحظات. وهذه الحرب لحظة ولكنها لحظة بها بؤرة تبتلع كل شيء يمر بها.

*

والرسائل التي تُكتب لأبناء السماء لا تصل إلا بالدعاء، أرسل لي إشارة إذا كُنت هناك وإذا وصلتك هذه الرسائل! وهلا توسطت لي عند ملائكة السماء؟.

*

أحبابنا يا جدتي تحت التُراب في إنتظارنا، هُم أحسنُ حالا منّا. ولنرثي أنفسنا التي لازالت تُعاني وتواجه وتقاتل الموت كل يوم من أجل الحياة.
وأي حياة هذه التي أحدثك عنها؟.. نعم هي الماء والهواء والأكل والتطلّع إلى اللاشيء!
جالسين تحت ظلال أشجار النخيل.. في الساحات الجدباء بوجوه منهكة وأرواح مستسلمة لقضاء الله وقدره.

-إهداء..

لأولئك الذين لم تنصفهم الحياة.

.1

العالم بشعٌ جدًا.

ويزداد بشاعة كلما قرأتُ خبر موت أحدٍ أعرفه، مللت تقديم واجب العزاء! ورفع غطاء الخيمة مدعيّة بأنني متأثرة وأبكي شخصا لا يربطني به إلا القليل.. واجب العزاء هه.

الموت ياصغيري أصبح مبتذلًا جدًا، كل شيء في هذه المدينة أصبح مبتذل. حتى الحياة أصبحت مُقترنة ببعض الأخبار على مواقع التواصل الإجتماعي، حتى أننا أحيانا قد نختلق أخبارًا لإسعاد أنفسنا وإيهامها بأن كل شيء على مايرام، وبأن كل شيء سيعود كما كان..

التواريخ ماعادت مهمة، كل الأيام أصبحت متشابهة. كل الأيام بدأت بإزاحة بعضها البعض، كأننا نعيش في يوم واحد متكون من عدة ساعات ومالساعات إلا ساعاتٍ طِوال.

في هذه المدينة قد يقرر أحدهم العودة إلى المنزل ليلًا، ليجد رصاصة قناصٍ ما في إستقباله أمام الباب. لتسلب منه روحه، وتترك جسده يتخبط على قارعة الرصيف، واضعة على رأسه وردة حمراء، ورسالة صغيرة مكتوبٌ فيها " لست وحدك".. "ما أنت إلا ضحيّة حرب".

.2

إستيقظنا اليوم على صوتِ سقوط صاروخ على المنزل المجاور، كل هذا يا إبني يحدث في ثانية واحدة.. سقوط الصاروخ وفزع الأجساد من نومها، وصعود الأرواح ونزولها، هلع الجيران، الناس في الشُّرفات واقفةُ في الشوارع أمام منازلها، تمسح من على وجهها النومة التي كانت تحسبها الأخيرة.. لا.. لا لم تكن كل تلك الناس واقفة لتفقد حال تلك العائلة، بل لإنتظار سقوط الصاروخ الأخر، وما إن تمر الدقائق حتى تعُود الجثامين إلى مراقدها.

وأنا أنظر من فتحات الشرفة، أرقبهم جميعًا.. والغيوم تغطّي السماء تأبى أن تُفسح للشمس مساحة صغيرة لتسدل خيوطها الذهبية على أجسادهم فتبث في أرواحهم شيئًا من الحياة والأمل.

تسألني ماذا حل بتلك العائلة..؟ هُم بالتأكيد أفضل حال تمامًا مثلك.. لقد عادوا لإكمال نومهم الأبدي.

.3

عندما تهطل الأمطار تركضُ حبّات المطر لمعانقة الأرض، اليوم أمطرت كثيرًا.. ولكنه مطرٌ ملوّث! مليئ برائحة البارود والدم والقمامة المحترقة. إنهم يحولون اللقاءات الحميميّة إلى لقاءات ملوثه بعفنهم البشري.

*

إنني كلما ذهبت لمحال البقالة لأشتري بعض الحاجيات، أرى شُبانًا يُراقصون أمهاتهم ويغنون مع بعضهم البعض. ثم يحتضنون بعضهم ويلتفّون حولي على شكل دائرة ويبدؤون بالضحك عليّ. ومن بين الجموع الضاحكة، رأيتُك.. نعم رأيتك واقفًا في نهاية الشارع.. واقفا في تلك الزاوية، مُرتديًا القُمصان البنّي الذي تُحبّه والبنطال الأسود الذي كرهته، ناديتُك كثيرًا بأعلى صوتي، وكان الصوتُ في كل مرة ينخفض شيئًا فشيئًا إلى أن إنقطع تمامًا.

لملمتُ نفسي وعدتُ إلى المنزل! أواهٍ يا إبني لقد كسرت قلبي ككل مرة ألمحُ فيها طيفك ثم تختفي.. لما لم تسمعني؟ وأنت الذي لم تسمع الكلام يومًا!.

أمّا عن المنزل فالوضع قد إختلف تمامًا، عدتُ وعادت الأسئلة تنصبُّ على رأسي ككل مرّة أخرج فيها لشم بعض الهواء أو للذهاب إلى البقالة، وكعادتي تكون الإجابات متشابهة.

" إنّ الذي أبحثُ عنه لم أجده لا في المحال ولا في الشوارع" إذا.. هلا أتيت؟.

4

في محاولات بائسة منها لإجراء محادثة معي، أخذت تُخبرني عن الحياة واليأس والموت! والمنازل المهدمة والعائلات المُهجرة، تقول لي في إحدى الصباحات الحارة بأن علينا أن نعتاد. وأن نشكر الله دائما وأبدا.

*

اليوم إستيقظت صباحًا وإتصلت بالجميع أخبرتهم بأن الغداء عندنا، وعلى الجميع الحضور وإن غاب أحدٌ منهم سأحزن كثيرًا، أنا الأم وعليهم الإنصياع لأوامري.. أليس كذلك؟.

دخلتُ المطبخ وأعددتُ كل شيء، حتى أن أقدامي ماعادت تستحمل كل هذا التعب، حضر الجميع وجهزنا الطاولة، والأطفال يلعبون ويركضون نحوي أحيانا لتقبيلي، والأصوات تتعالى من هُنا وهُناك. المنزل به فوضى وبه أصوات الجميع إلا صوتًا كُنت تعودته غاب فجأة. المنزل ممتليء وفارغ.

ولكن عندما حان وقتُ الغداء وجلس الجميع على الطاولة التي كنت أوسطها.. لمحتُ فراغًا يملأ الكرسي الذي أمامي!..

لحظة ليس الجميع هُنا.. ليس الجميع! ثمة شخص غائب.

لحظة لايقرب أحدكم الطعام! ألم أقل لكم بأنّه لن يقرب أحد منكم الطعام لو نقصت الطاولة شخصًا واحد؟!.. لحظة.. ليتصل أحدكم به قبل أن يبرد الطعام.

ولاحظت بأن الجميع يحملق في وجهي كثيرا، كما أنني لاحظت الآسى الذي يملأُ وجه الجميع! الصغير منهم قبل الكبير.. لكنهم ومع ذلك آبى أحدٌ منهم أن يتصل بك!..

-إتصلوا به سريعا!!

لحظة!..

نبهي الأولاد ألّا يقربوا الطعام وإلا..!

لا أحد يقرب شيء لاتلمسوا أي شيء! لا تأكلوا شيئًا حتى يجيء.

ذهبت لأتصل بك، وعلى الطاولة الفارغة أجلسُ وحيدة ولا أحد يؤنسني، كانت الساعة الثامنة مساءً.

وأختك جالسة على الكنبة المجاورة ترقبُ تصرفاتي وتحركاتي في كل مرة.. عاودت الإتصال بك مرة أخرى، في كل مرة يقال لي بأن الرقم مُقفل!.

أتمنّى حقًا أن تكُون بخير. قبلاتي المحملة بالأشواق والدعاوات تصلك كل يوم.. هلا أتيت! فقد وهن جسدي وتعبتُ كثيرًا.

.5

ما إن غبت عن الأنظار وتوقفت عن التحدث إليّ، حتى تغيّر كل شيء.
الزهور على الشرفة توقفت عن النمو، العصافير غادرت القفص ولم تعد.
إنهم يحتجزونني هُنا في الغرفة الصغيرة تلك الغرفة التي كُنتُ أمضي مُعظم وقتي أحيك فيها الملابس وأرقّع السراويل والجوارب. عندما كُنت أجلس على آلة الخياطة وأنت تدخل إلى الغرفة لتطلب منّي سكب الغداء لك؟.. تذكر!
لكنها الأن فارغة فارغة تماما، وتلك الآلة ماعادت هُنا والأزرار المبعثرة على الأرض إختفت.
الغرفة أصبحت فارغة إلا منّي ومن صوت الآلة العالق في الزوايا يتردد صداها في الأجواء، أستطيع سماعه جيدًا.
إنهم يضعونني في هذه الغرفة كل يوم من الصباح حتى الساعة السادسة مساء، ويجبرونني على ملاقاة أُناس لا أعرفهم وتلك القُبل من الكائنات الصغيرة تنهمر على وجهي كلما أتوا. والوجوه الساخرة التي ترتسم على وجوههم كلما جاؤوا لزيارتي. كما أنني أجدهم أحيانا واقفين في زوايا الغرفة ينظرون إليّ وأنا أنظر من النافذة منتظرة السيارة السوداء التي إصطحبتك يومًا.. أن تعود.
إنهم يظنون أنني فقدت عقلي كليًّا. لكنني مازلت بأفضل حال لازلت قادرة على مشط شعري بأصابعي.. حتى أنها قامت بإزالت كرة شعر منعقدة حول الأصابع أرادت أن تخنقني وتقتلني! ولكن أختك أتت في الوقت المناسب.
أخبرتني وحاولت كثيرا إقناعي بأنه وضع مؤقت! ولكنني أرفض ذلك تماما بالصراخ في وجهها وطردها من الغرفة. يحز في قلبي بأنني لا أملك بين يدي كأسٌ أو أي شيء بجانبي لرميه في وجهها!.

وضعوا جسدي في الغرفة، ولكنها روحي طليقة حرة في الخارج بعيدة عنّي.. تبحث عنك يا وجه الملائكة الطيبة، روحي تبحث عنك في الشوارع والأزقة وساحات المعارك، علّها تجد وجهك بين الوجوه المتعبة المغطاة بالأتربة والرصاص.

ياله من عذاب أقاسيه هُنا يابنّي.. أخبرتني بأنك ستأخذني يوما لأداء العُمرة، أمازلت على وعدك؟.

.6

لقد مرّ وقتٌ طويل جدًا على أخر مرّة نمتُ فيها وأنا مُرتاحة. مُرتاحة البال ومُرتاحة من كُل شيء.. مطمأنّة.
حاليًا لا أنام إلا بعد أن يهدأ كل شيء بعد صمت المدينةِ الفوضوي، والشوارع وعودة الغيوم لمكانها الصحيح.
وكأنّي لا أنام إلا بأعصابٍ متشنجّة.. والأرق.. أوه الأرق نعم أصبح رفيقي الدائم!
والأربع ساعاتٍ التي أغفو فيها يقطعها صوت الحمامة التي تبني عُشًا على عتبة النافذة كل صباح.
لا تقلق! لقد ذهبتُ لزيارة الطبيب.. وأخبرني بأنها فترة يمر بها الإنسان وبأن الأحداث الحالية ماهي إلا عوامل مساعدة في زيادة التوتر والقلق، وصف لي أدوية ولكن رأسي يلفظها ويرميها بعيدًا. وما إن أخلد للفراش عند العاشرة، أبدأ بالتطلع إلى جدار الغرفة والأشياء المكوّمة فوق طاولة الزينة، يغطّيها الغُبار.. لا أذكر حتى أخر مرّة تكحّلت بها عيناي!.
ساعدنا يالله!.. أعنّا وإخفض صوت الصواريخ العالية، أو غيّر لنا مواقيتها؟.
بعد الساعة الواحدة يصدحُ ديكُها في الفراغ وفي كل مرة أسمع صوت خروج الصاروخ يفز جسدي وأجد نفسي واقفة أمام باب الغُرفة ورأسي بين يداي.. أنا لم أتحرك! كيف وصلت إلى هُنا؟.
إنها تسقُط بطريقة عشوائية.. وتقتحم حُرمة المنازل عنوة، تنزع من أحشائها كل ماينبض بالحياة وتُقطعهم إلى أشلاء، تاركة وراءها ذكرى لأُناسٍ مرّوا من هُنا.. تاركة وراءها الصدمة.
إنها تختار الأطفال كثيرًا.. أوه الأطفال الذين قيل بأنهم سيكبرون يوما ليبنوا هذه البلاد البائسة، هُم أيضا أصبحوا لعبة من لعب الموت. يقتلونهم الواحد تلو الأخر!.
مابالهم يابُنّي؟ جُنّ العقلاء! جُنّ هذا العالم الملعون.
أخبرني ذلك الطبيب بأن يجب عليّ أن أتوقف عن قراءة الموت في الصحف والأخبار والراديو، وأن أكتفي بمعالجة نفسي ونفسي فقط.
ولكنني كلما جلستُ في الغرفة أجدهم يتحدثون عن الموتى وأسباب موتهم وتلك الأدعية الغريبة التي تنصب على أرواحهم فجأة، حتى ينتبهوا لخيالاتي جالسة بينهم، فيغيروا المواضيع ذات الرائحة النتنة محاولين رفع سقف البهجة والفرح.. لكن لاشيء مُبهج هُنا حقًا.
إنّي بحاجة ماسة لإحدى فترات النقاهة، لا أريدها في المدن الأخرى ولا القُرى المجاورة.. فقد مررنا بذلك مُسبقًا. ولكنها رائحة بنغازي، تلتصقُ بأبنائها إلى الأبد! لتذكرهم بجذورهم أينما حلّوا.. تلك الرائحة.. وأصوات الصواريخ تحضر في ميعادها الأول.. والصرخة الأولى والشهقة التي نفثتها على إختفائك.. لازال كل ذلك يطاردني، كلها حاضرة معي في المزرعة البعيدة جدًا.
إنني أحتاج إلى نقاهة أبديّة، مثلك!.

.7

إنني أحرص وبشدّة على أن تخبرني عن كل شيء أقوم به أثناء غياب وعيي، حتى أجد ما أكتبه لك في هذه الرسائل!.. ولكنني في الواقع بدأتُ أشعر بالخجل من كل تصرفاتي مؤخرًا.
أصبحتُ حقًا لا أعرفني.

*

.8

في صالة الإنتظار يجلس أمامي بوجهه الشاحب الهزيل وشعره الأسود الكث وعيناه الذابلتان/المحمرتان، يرتدي قميصا أخضر مهترىء وبنطال جينز رث، يرمقني بنظرات بين اللحظة والأخرى.. وعندما تتقابل عينانا يرفقها بإبتسامة، ليسألني في لحظة صافنة :
-أنت التالية؟
-لا أعرف.
لايوجد إلّانا في الغرفة نجلس قبالة بعضنا البعض، يتبع ذلك الحوار الصغير ضحكة بسيطة مليئة بالإرهاق والتعب.
-لا تقلقي لن أتأخر كثيرا عنده.
أجبته بأنني لا أمانع البتّة، ولكن زوج إبنتي يمتعض كثيرًا من تأخرنا، فوجدت نفسي منجرفة في الحديث عنه وعن أفعاله..
" زوج أختك ينهرني كثيرًا، أراه أحيانا يدخل إلى المنزل فجأة يدفعها أمامه ثم يقفلان الباب ويرحلان. تغيبُ لعدة أيام ثم تعود، وعندما أسألها عن الحال تُخبرني بأنها بخير.. كاذبة أعلم ذلك تماما ولكنّي أدّعي بأني إقتنعت بكلامها.
وأعرف بأن وراء كل هذا شجار طويل سببه أنا.
حتى أننا أحيانا عندما نذهب إلى الطبيب أسمعه يحدثها عنّي، وكيف أنه سأم هذا الوضع فتحاول أن تسكته ولكنه يرفض ذلك تماما، ويقول لها بأنني خرّفت ومريضة نفسيًا وأعيشُ في عالمٍ أخر بعيدًا عن عالمهم.
أنا ياطفلي، يامن كُنت يومًا سندي بعد رحيل والدك.. أدّعي فعلًا أنني لا أستمع لحديثه المُقيت وأبدأ بذكر بعض الأشياء وأتمتم بأُخر كأني حقًا أعيش في العالم الأخر.
لا.. طبعا لا أستطيع أن أرد على كلامه وأن أعترض، أوتظن بأن لو كان لي شخص أخر يساعدني كنت رضخت له؟!
أنت تعرف أمّك جيدًا يا ولدي. ما أعوزتني له إلا الحاجة.
كما أنّ إبن أختك يزورني بين الفينة والأخرى.. لاتقلق!
يقول بأنه يعمل في أحد المحلات القريبة من المنزل، نصحته بترك العمل لأنه صغير في السن!
ومن المفترض أن يكون في جامعته الآن وليس بالمحل!.. يزورني لأخذ البركة منّي وأقوم بنثر الدعوات وراءه حتى أسمع صوت باب الشقّة يقفل، ثم أقوم بلحاقه من النافذه وأطالعه حتى يختفي..
وأخاف كثيرًا أن يذهب وألا يعود لي في اليوم التالي."
أخذ الحديث مسارًا طويلًا جدًا، حتى أنني شعرتُ لوهلة بأني أخاطبك.. فصحيت من غفوتي عندما بدأ يحدثني عن حاجياته التي أضاعها في الحرب.. بدت لي أشياء ثمينة، مهمة جدا وغالية، يقول بأنها من حر ماله الخاص.
ثم بدأ يبكي ويقول " إن الحرب إلتهمت كل شيء، اللعنه! اللعنةٌ على الحرب!"..
هُنا إنتهزت الفرصة وسألته عنك، أخبرته عن مواصفاتك ولكنه نفى رؤيتك أو حتى معرفتك!.
إجتاحتنا موجة من البكاء الحار، كل واحد منا يبكي على مافقده.. نبكي والدموع تنهمر من مقلتينا بشدة، ونحاول كثيرا أن نهوّن على أنفسنا ببعض الكلمات، إلا أنّ الشهقات تأبى إخراجها.

تحدثنا كثيرا عن حساراتنا، وإتفقنا أن نذهب سويا لمكتب المفقودات لتسجيل مافقدناه يوما وراء هذه الفوضى العارمة، وبينما كنت أهم بالخروج معه.. قطعت طريقنا سيدتان إحداهما أعرفها جيدًا، إتهمتني الأخرى بالخطف وبالجنون! وبدأت تصرخ في وجهي بصوتٍ عالٍ.. فصَلُونا عن بعضنا أمام باب المركز الطبي، ونحن نرمي لبعضنا الأحضان والدموع من بعيد.

.9

جلستُ اليوم أرقب صراعًا بين غيمتين، إحداهما سوداء ويُخيّل إليّ أنها مُحملة بالمطر.
والأخرى كانت غيمة بيضاء ناصعة البياض.. بياض الكفن قبل أن يُغطّي الجسد، كان منظرًا أخاذا حقًا وبقيت طِوال الوقت جالسة أطالع النزال بينهما، منتظرة إعلان فوز واحدة منهن.. من التي ستستحوذ على هذه الرقعة من السماء لها، وكانت الغيمة السوداء تجمع رفيقاتها ولكنهن يرفضن إنزال المطر، والغيمة البيضاء تتجمع مع الكدس الهائل من الغيمات وراءها حتى قمن بإزاحة الغيمة السوداء بهدوء.. تراجعت ببطء وأخلت مكانها، كان إنسحابًا وُديّا. وشعرت لوهلة بأنني أربت على كتفها وألّا تحزني.
فأخبرت إبنتي بذلك.
-إنها إشارة.
ولكنّي لا أؤمن بالإشارات السماوية!.. أهي حقًا كذلك يا بُني؟.. قل لي؟ إذا كانت حقًا إشارة سماويّة فسأخذها بعين الإعتبار.. نعم، فأنا لا أريد تعليق أمال كبيرة في هذا الفضاء الوسيع.
وأحيانًا أفكّر بأنني سأقضي نحبي تحت هذه العشوائيات المتطايرة، ولطالما تخيلت المشهد، ولايمكنني إلا أن أشاركك إياه.
أكون مستلقية على الفراش.. متجهزة للنوم، وتدخل إحداهن من الشرفة تستلقي في حضني فأنشطر إلى نصفين يستنجد أحدهما بالأخر، فيقضي الجميع يومه بالبكاء ومحاولة لصق مالا يمكن إلصاقه، مشهد قاسي أليس كذلك؟.. لا ليس قاسٍ لهذا الحد، فهذا مشهد عادي من المشاهد اليوميّة البائسة التي نراها ونسمع عنها كل يوم.
أستغفر ربي وأحاول إبعاد هذه الوساوس عن نفسي، ولكنّي أظل أفكر في أولئك الذين إلتهمتهم العشوائيات، هل ظنوا يوما أنهم سيموتون هكذا؟ أم أنهم كانوا من الذين يعيشون يومهم بيومه؟.
لا أريد أن أموت مثلهم! لا أحد يريدُ ذلك!.. أريد مغادرة هذه الحياة كالغيمة السوداء.. أن أخرج بهدوء كما دخلتها، تاركة ورائي اللا شيء.. تاركة صوت الهدوء والرياح المترنحة في السماء.

*

أعرفُ أنني أفكر كثيرًا مؤخرًا، حتى أنني أضطررت لتناول الدواء غصبًا عنّي.. وأصبحتُ أنام أكثر، علّني أستريح بعض الشيء من التفكير والوسوسة.

.10

إن الحُزن يشتد بي ويحوط بي ويحوط بقلبي من كل إتجاه، وكلّما نفثته ببعض الآيات والأدعية، يعود لمهاجمتي من جديد.
وقلبي ضعيف ماعاد يحتمل كل هذا الآسى والحُزن، إلا أنني لازلت مؤمنة بأنني سأخرج من هذه المحنة بشيء ما! ولو كان ضئيلًا جدًا، إلا أنه يسمّى بالشّيء.
ذهبتُ للمستشفى منذ عدة أيّام نظرًا لتدهور حالتي الصحية، قيل لي بأنني أعاني من إنخفاض حاد في الضغط وقد يؤدي بي ذلك إلى الهلاك إذا لم أعتني بنفسي جيدًا.. لا أريد فعل ذلك!.
إلا أنها تُصر كثيرا على الإعتناء بي وبمرضي وصمتي، تقول لي أحيانا بأنني أخر ما تملك إن غبتُ عنها فمن سيبقى لها من بعدي؟.
بعض الأطباء ينصحونني بالخروج من هذه المقبرة الجماعية، إلا أنني أرفض ذلك تماما!. فماذا لو عدتَّ من جديد وطرقت الباب من ذا الذي سيفتح لك؟.. أأقول بأنه يُخيّل إليّ أحيانا أنني أستيقظ في إحدى الصباحات على رنين جرس المنزل وعندما أجيب أسمع صوتك؟، وعندمت أفتح الباب ترتمي في أحضاني، ووجهك مليء بالغبار وشعرك كثٌّ ووسخ، وملابسك المهترئة!.
نبدأ بالضحك والبكاء معا، وأنهرك على غيابك الطويل.. ونجلس على الطاولة المليئة بالملذات والأطايب وكعك المنزل الذي تحبهُ.
أتذكرُ الكعك الذي كنت أنا والجارات نتجمع عند واحدة منا من الصباح حتى المساء لنخبزه ومن ثم نقوم بتقسيمه بالتساوي فيما بيننا؟، نأكل منه حتى يرتفع السكّر في دماءنا! وتحدثني عن كل الذي حصل معك، وعن المغامرات التي خضتها يوما في فترة الغياب المُرّة.

ذات صباح جاءت تلك السيارة السوداء اللعينة، أخذتك ولم تعد، وإلى الآن أنتظر عودتك سالمًا غانمًا، لتسعد قلبي ولتعود الألوان والحياة تنبض في صدري، وتنهض بنغازي من بين الركام الغابر.. من بين المدن جميعها تراها تشعّ في وسط الجموع وأمسح من على وجهها البؤس والفقد، ونعلن جميعًا بأن موعد الفرح قد حان وبأن مافقدناه يومًا ماكان إلا محض مُزاح والآن فليعد كل فقيد إلى منزله ليسعد من أبكى قلبهُم عليه يومًا.

سأترك لك مفتاح المنزل عند جارتنا "فتحية".. أوه نسيت! فتحية توفيت العام الماضي، الأيام تمضي بسرعة لاتنتظر أحدًا أبدا.. ومن يعطل سيرها، تحوّله على الهامش مثلنا مثلًا.
إنهم يروننا كعائق سيعطل سير الحياة إذا ماوقفنا ضدهم والهوامش إمتلأت بالكثير الكثير من الناس، وهم يمضون في حيواتهم، ويرقبوننا أحيانا من فوق الأسوار ليطمأنوا إذا ماكُنا مستمرين في القتال أم لا.
لكن مايبعث في قلبي السكينة هو زيادة أعداد سكان الهوامش، أشعر بأننا لسنا الوحيدين في هذه المأساة.
وجاراتي يتسابقن على الموت.. كانت أخرهن "فتحية" ولازلت أنتظر دوري في هذه الغرفة المليئة بالرطوبة والناموس، ورائحة الخبز الطازج اللذيذ المنبعثة من المخبز المقابل للشرفة كل صباح، تُلزمني على إرتداء جلبابي ووضع الغطاء على رأسي بطريقة مُستعجلة، والركض في الشارع

والوقوف في الطابور، حتى أحصل على رغيفين من الخبز الساخن. أستنشقها حتى تتغلغل في جسدي وأطراف أصابعي، إلى أن يبردان وأعود إلى النوم من جديد.

حسنًا على كل حال.. وأشدد على كلمة الحال، إذا ماقررتُ مغادرة هذه المقبرة، مكب الجثث هذا سأودعُ المفتاح عند إبنها.

.11

بعضهم يغادر من بعد فوضى عارمة، والبعض الأخر يغادرنا بهدوء تام. وحدهُم هم من يقتلنا غيابهم يوما بعد يوم عندما نتذكرهم.. فنبدأ بتذكر كل شيء كل شيء يخصهّم منذ مجيئهم لهذا العالم البشع مرورًا بأول كلمة يقولونها وحبهم العابر، والتغيرات التي تطرأ على أجسادهم الفضيعة، نتذكر كل شيء.. حتى إذا ما إقتربنا من النهاية تنقطع الرؤى والذكريات بسيف حاد ويحوط المكان بشريط أصفر فاقع، ويافطة صغيرة حمراء اللون مكتوب عليها "إحذر الدخول".

غيابهم بهدوء هو مايجعلنا نبكيهم طوال اليوم ويجعل قلوبنا منهكة ومتعبة طوال النهار، وعقولنا منشغلة بصياغة نهاية تليق بهم وبمقامهم عندنا.

غيابهم المباغت لنا، يجعلنا.. منكسرين.

البارحة إلتقيت مع السيدة فطيمة وزوجة إبنها المتوفي، أخذتنا الأحاديث وجرفنا سيل من الدموع في وادي الذكريات حدثتني كثيرا وبحرقة عن رحيل إبنها المفاجيء للقتال في الحرب ذهب بهدوء أيضا من وراء ظهر أمه إنها تُعاني كثيرا من بعده.. لاتملك مدخولا يسد جوعها وإحتياجاتها اليوميّة لاهي ولا أحفادها الصغار، تتحدث عن تأخر المرتب الشهري الضئيل.

-كأنهم يستكثرون المال علينا!.

جارتها تقوم بالواجب أحيانا وترسل لها بعض من متطلباتها، ولكن اليد قد تقصر وتنقطع في بعض الأيام!. ومن بعد حديث طويل مليء بالحزن والآلام والترحم على أرواح قد رحلت يومًا ختمت هذا اللقاء بما يردد في أرجاء المدينة.

-الحمد لله أننا لسنا من النازحين.

-الحمد لله.

*

وأتذكر حلمًا غريبًا راودني منذ عدة ليال ذلك الحلم الغريب، كلما تذكرته إجتاحتني موجة من الضيق في صدري.

كُنت مرتدية جلابية مزكرشة بالورود وشعري مسدلٌ على كتفي حافية القدمين، إلتقينا في ممر صغير ضيق، تمشي فيه ممسكًا في يدك مجموعة من الصحون البيضاء وعندما حاولت اللحاق بك بدأت برمي الصحون من ورائك نهرتك! ولكنك لم تسمع!.. والزجاج يملأ الأرض كلما تقدمت بك الطريق.

الممر ضيق جدًا والضوء خافت لأقصى حد ولا يمكنني تجنب قطع الزجاج الملقاةِ على الأرض، ويجب أن ألحق بك، وأنت بخطواتك السريعة وكسرك للصحون كنت حاجزا وعائقًا كبيرا لي!.. إستجمعت كل ما أملكه من قوة وبدأت بالمشي على الزجاج المكسور.. بدأت قدماي بالتورم والتجرّح والدماء تسيل منها كلما إنغرست إحدى القطع.

أتوقف!.. ثم أعود مرة أخرى للسير بأقدام حافية على قطع الزجاج المنكسرة، لكن الألم أوقفني مرة ثانية ولم أعد أستطيع فعل أكثر من هذا.. فإنتبهتُ إلى أنني لازلت في بداية الطريق ولم أقطع إلا القليل، القليل جدا وأنت أصبحت هناك في نهاية الممر المُعتم.

عادت لإجتياحي موجة البكاء والصراخ الحاد، إستيقظت أختك بفعلها إحتضنتني وأعطتني حبة الدواء المُقيتة، وقرأت على رأسي بعضا من السور والدعوات، إلى أن عدت للنوم من جديد.

حاولت كثيرا إحضار ذلك المنام مرة أخرى، ولكن حبة الدواء تلك أثبطت كل قواي ونفثت في رأسي كل سمومها.

أما أنت.. فتبا لك! غبت تحت أنقاض الضوء الخافت وماعدت مرة ثانية، أبيت الخروج والإعتذار لي من إحدى الممرات وكمثلهم تمامًا.. رحلت بهدوء قاتل.

.12

إبني الضائع بين أوراق شجر الخريف وسحابات الصيف الباردة، أصيب إبن أختك البارحة بطلقة رصاصة طائشة ولكنها ولله الحمد أصابت رجله..
يُقال بأن من يطلق الرصاص لايكترث لشيء أبدًا، ولايكترث لعدد الأرواح التي ستزهق من بعده وحدهُم أولئك الذين تتغلغل ذرات الرصاص في أجسادهم من يكترثون.
كانت أعصابي مرتخية لأول مرة وكل ماحولي أصبح متشابهًا.
لذا قررت الذهاب لزيارته اليوم صباحا، وما إن دخلت المستشفى حتى لمحت الفوضى في كل مكان، ولا مكان هُنا إلا للأصوات العالية والجميع يركض في كل إتجاه.. وتلك المرأة التي تبكي إبنها، وبجوارها أخرى تبحث عنه.
ورجل ممسك بيد إبنته المغشيّ عليها، ينادي للمرضة التي لا تسمع.
الأروقة مزدحمة، وخيّل إليّ أن الجدران بدأت تضيق شيئا فشيئا وتكتم على نفسي تخنقني كلما تقدمت قليلًا، كانت رائحة البؤس والموت تفوح في الهواء.
دخلت للغرفة ورأيته ممدًا على الفراش والخيوط تتدلّى منه في كل إتجاه.
-أكلت؟
-لا
-أحضرت لك القليل من الأكل.
-لا أريد.
كانت الضمادة الكبيرة تغلف رجله، غارقة في الدماء حوافها سوداء. قطَعتْ إتصالي بهذا العالم، وودت كثيرا أن أنهض وأزيحها وأغلف رجله بغطاء رأسي وأمسح له الجرح وأنظفه، حتى جاءت الممرضة وقامت بإزالتها له.
رائحة الدم والكحول تفوح في الأرجاء! تقوم بمسح الجرح.. كثقب أسود عائم في إحدى المجرات، يبتلع كل شخص يمر بجانبه. كانت فوهة مكتضة بأشياء غريبة، يمكنك أن ترى ماخلفها.. الجدار الملوث ببقع دم البارحة.. أو أول الأمس! وقد تكون الأسبوع الماضي.. لا أعرف حقا!.
ولكنّي أقسم لك بأنّك لو كنت حاضرًا معي لرأيت مارأيتُه من خلال ذلك الثقب.
قطعت حبل رؤياي الممرضة عندما رميت الضمادة في السلّة بعنف! وإلتفتت إلينا قائلة بلكنة غريبة لم أتعود سماعها يوما.
-لا يمكننا تحمّل تغيير الضمادات كل عدة ساعات، ثمة الكثير من الجرحى والصابين الذين يتاوردون لهذه المستشفى كل يوم، هُم أيضا بحاجة لهذه الضمادات. أعتقد أنه وُجب عليكم شراءها من إحدى الصيدليات.

عدت للمنزل.. وما إن دخلت من الباب حتى إتصلوا بي وأخبروني بأنه قد دخل لغرفة العمليات لسوء حالته الصحية، ورجوت الله كثيرًا ألا يأخذه من على منضدة الطبيب!.

ألا تكون نهايته في المشفى العام، فمن ذا الذي سيوقظني صباحًا ليأخذ مباركتي؟. ويشرب معي الشاي ويأكل الكعك عندما أكون وحيدة.

الحمدُ لله! لا تقلق.. أستجيبت نصف الدعوات، ولم يعد كالسابق.
دخل إلى المنزل يوما بساقين صامدتين كأعواد قصب السكّر، واليوم وبعد عدة أشهر عن أخر يوم رأيته فيه يدخل بساق واحدة.. ساق ونصف في الواقع. إحداهما تفتقد للأخرى، قصب السكّر أصبح قشًا عندما ضربته الرياح.. ياالله.

-كان بوسعي ياجدتي أن أعود بساقين إثنتين أن أعود كما ذهبت، ولكن تأخري أدّى إلى مشاكل وزيادة الإلتهابات مما أدّى إلى قطع الساق.
لو أننا كنا نملك المال فقط!... ليس لدينا نقود للسفر خارجا والعلاج، الدولة لاتريد مساعدتنا، وأموالنا كما تعلمين أنت لا تكفي إلا لإحتياجاتنا الأساسيّة، نحن هُنا إما أن نموت أو تبتر أعضائنا.

ويقول لي مشتكيا الحال.. أن سعر الدواء أصبح كسعر الذهب ولا أحد يريد أن يساعد أحد إلا إذا كان وراءها مصلحة ما، ثم تطرّق للحديث عن وضع البلاد والإستغلال المتعمّد الممارس على المواطن، فقمتُ بإعداد الشاي له وإحضار الكعك لعلّه يتوقف عن الحديث المتكرر وينسى لفترة مؤقتة.

الأن هو مثلي تمامًا، غارق في دوامات الكآبة نقوم بصدها أحيانا مع بعضنا بالدعوات والصلاوات، ولكنها غالبًا ماتكون شديدة علينا.
الأن هو مثلي.. كسفينة جرفتها دوامة مزقت أشرعتها وحطمتها أشدّ التحطيم، لم ينجُ أحد على سطحها، إلا قطعة خشبية أخذت تطفو على سطح الماء بعدما توقف هياج البحر ولاتدري بأي أرض ستحط ولا أي يابسة ستحتضنها.

.13

أخبرتني بأنه يجب عليّ التوقف عن الإنتظار، وأن أمضي قُدما في حياتي.
هذا يعني وبكل بساطة أن أتوقف عن إعادة تنظيم غرفتك كل يوم، ومسح الأتربة والغبارات التي تغطّي مكتبتك الصغيرة وأن أعيد ترتيب حاجيّاتك، أن أتوقف عن إنتظارك وقت العشاء، هذا يعني أن أتوقف عن فعل كل شيء متعلّق بك..
أخاف حقًا أن أتوقف! فماذا لو توقفت عن فعل كل ذلك لتأتي أنت فجأة وتجد غرفتك مقفلة بالمفتاح، مغلفة بالشراشف والأغطية ويحيطها الغُبار وشبكات العنكبوت الصغير من كل جانب؟.. ستحزن حتما وتظن أنني نسيتك!
لكنني لم أنسك ولن أنساك أبدًا. فأنا أعلم تمامًا بأنك غارق في إحدى مستنقعات هذا العفن الذي أعيش فيه!.. لكن أخبرني أي مستنقع هذا؟.

ابني العزيز لا أنسى أن أُعلمك بأنهم يضغطون عليّ حتى أغادر هذا المنزل.
ولكنني لا أستطيع.. الذكريات كلها هُنا، لايمكنني تركها وحدها و... لايمكنني تخيّل الأمر حتّى!.
ابن أختك يخبرني بأنه عندما يتزوج سيجيء ليسكُن معي ويحثّني على عدم المُغادرة، ثمّ يلتفت صوب الجدار يمسح وجهه الغارق في العرق ويلتفت لي مازحًا.
-يبدو أنني سأصابُ بالإنفلونزا عما قريب!.

وأعلم تماما أنه سيجيء ذلك اليوم الذي تكون فيه حياتي ليست ملكًا لي وسأكون عبدًا طائعا لهُم، وسيوجهونني كيفما يريدون. ولكنني سأسعى بكل جُهدي أن أُأخّر هذا اليوم.
*
إنهم لايريدون ترك الوطن أبدًا، ولايريدون تركنا نحن البؤساء أن ننام بسلام! ولايريدون إلا الخراب والدمار وقتل الحياة فينا، وإجبارنا على التعايش في هذا الوضع المأساوي ليرحل منهم من يرحل، ويهرب منهم من يهرب، ونبقى نحنُ نبكي على بقايا المنازل المُهدمّة وأولئك الذين أخذتهم الحرب منّا في هدوء.

.14*

لازلت أذكر مارأيته يومًا، ذلك المشهد لايُفارقني أبدًا.. تلك المرأة الواقفة بجانب زوجها يشترون الخضر والفواكه، وترى السعادة على وجوههم والإبتسامة على وجه البائع، يحملان الأكياس ثم يهمّان بالذهاب للسيّارة.. للسيّارة أعتقد!
ثم رأيتُ تلك السيّارة المصفحة السوداء تمشي بجانبهما.. يترجّل أحد منها ويوقف الزوج ثم يرفع السلاح في وجه الجميع، ثم يصطحبانه معهما ويدخلانه للسيارة والمرأة المسكينة تتوسل لهما حتى بعد إختفاءهم.

لازلت أذكر ذلك المشهد تماما، تمر السيّارة بجانبهما يرميان لبعضهما السلام ويذهب كل واحد منهم في طريق.

ستسألني مالذي حلّ بالرجل أليس كذلك؟؟ أخطف أم لم يُخطف.. أنا مثلك لاأعرف! لاأعرف شيئًا أبدًا.
وكل مايدور حولي في هذا العالم لا أعرفه وقد مللت هذا الأمر، ولكني أيضا لاأريد معرفة شيء.
دور العجوز المُسنّة التي كُسر ظهرها وإنحنت قبل أوانها عندما إختفى إبنها وهي لاتعلم مكانه أهو فوق الأرض أم أسفلها.. بدأ يُعجبني. ولا أظن بأني سأحيد عنه يومًا.. إلا إذا عُدت لي من جديد!..
عندها سيتغيّر الوضع كُليًّا.

.15*

ماذا بعد الحرب؟ أي حرب؟ ومالذي تُخلفه ورائها هذه الحرب.. لاشيء سوى بعض الذكريات الممزقة المهترئة الأليمة، وشوارع تملأها روائح الخيانة والطمع والموت.
وبيوت كانت ولازالت تستقبل المعزّين.
مالذي تخلّفه الحرب حقيقة؟.. الحريّة والسلام؟.. إننا نتوهّم ذلك!
ياالله أود كثيرًا أن أخرج للشارع وأن أصرخ في وجه الجميع بأننا لن نتحرر ولن يحدث السلام الذي قتلتنا بإسمه الحرب.
نحن مساجين حُكم علينا القاضي الأكبر بحبس مؤبّد، وتلك الحريّة التي زعمنا يوما في لحظات الزهو أننا شممنا رائحتها، ماكانت إلا رائحة الدم.. وجثثٌ ملقاة في الشوارع وقنابل متفجرة وسيارات مفخخة وأشلاء لأطفال كانوا يوما يزينون منزل تلك السيدة.
ماذا بعد الحرب؟ يابُني؟.. غير المنازل الفارغة التي تفتقد أهلها وأم تنتظر عودة إبنها وزوجة تحتضن أطفالها بيد وباليد الأخرى تبكي صورة زوجها، وطفل بُترت ساقه ينظر لأصدقائه من أعلى سطح المنزل.. ماذا عن تلك المدارس التي كانت تستقبل طلابها يومًا، أقفلت بابها عنهم وصدتهم وماعادت تستقبل إلا النازحين.
ولاشيء تُخلّفه الحرب إلا الأوجاع وقلوبٌ من فرط حُزنها توقفت عن النبض.

.16

كابوس*

وسقطتّ على الأرض
عندما أخبروني عنك
تلك الكلمات كانت كالخنجر
يخز صدري كلما زادت
ودموعي تأبى أن تنزل
ولكنّها تملأ محجريّ عيني
ولم أعد أرى شيئًا
وأبيضّت الدنيا أمامي
وقلبي ينزف دمًا وآهات
واحسرتاه على ما أنجبت يومًا/واحسرتاه على فلذة كبدي
في غفلة من الزمن
وجدت نفسي تستنشق عبير الهواء
المُحمّل بنَفسِ الأشجار والدموع
ويداي تمتدان لتلمسا التراب الرطِب
حول القبور النديّة.

الخال الغائب عنا جسدا، الحاضر دائما وأبدًا روحًا.

كانت جدتي تُخبرني دائمًا عنك وتُحدثني عن قصصك وعن الفتيات اللاتي كن يتطلعن إليك كلما خرجت إلى الشارع، أخبرتني عن إبنة الجيران "هـ" التي كانت تحضر لك أشهى المأكولات وتُحضرها لجدتي عند الغداء وقبل أن ترحل تؤكّد لها بأن تعطيك منها..

"هـ" تزوجت الأن رأيتُها منذ قرابة الأربع أشهر تقريبًا، تحمل بيدها طفل يُخيّل إليّ بأنّ إسمه يُشابه إسمك. أعرف كل شيء. أعرف كل القصص، فأنت عندما رحلت أنا لم أكن صغيرًا فقد كنت حاضرًا في ذلك الصباح مودعًا إيّاك من وراء ظهر جدتي.

وإن كانت كل القصص التي أخبرتني إياها مُعادة ومكررة، إلا أنني كنت أستمتع جدا بتكرارها لي.

لاأعرف تحديدًا لمن أكتب الآن بالتحديد.. فحديثي عنك لن يكتمل وحديثي عن جدتي لم ولن يكتمل، الحُزن الذي كان يسكن جسدها يومًا إنتقل لي وشعرتُ بما كانت تشعر به عندما فرغ هذا المنزل.

لا أعرف من أين أبدأ! أأبدأ من تاريخ رحيلك وإختفائك أم منذ بدء جدتي بكتابة هذه الرسائل لروحك الطاهرة.. كُنت جالسًا أمام التلفاز أطالع إحدى المسلسلات، إفتقدتها كثيرًا في تلك اللحظة رائحة بخورها تلحّفت بجسدي وإحتضنتني بقوة شديدة، رحتُ أركض باحثًا عنها في أرجاء المنزل، إلى أن وجدتها في غرفتها المظلمة مُنغمسة في إحدى الوريقات وأنا واقفٌ أطالعها من أمام الباب. كانت تكتب ثم تتطلّع للسقف ثمّ تقف تمشي قليلًا، ثم تجلس. تُمسك رأسها بين يديها تضغطها بقوة كأنها تُحاول عصر رأسها محاولة إستحضار الكلمات البائسة التي تأبى الخروج، تُحاول قول شيء ما لكنها لاتستطيع!.. تقف ثمّ تسند ظهرها على السرير ثم تعاود الجلوس وتُكمل الكتابة.

كل هذا ولم تنظر لي حتّى ولم تلحظ وجودي كأنني شبح؟.. لا! لا لست شبح، كأنني إمتدادُ لضوء عمود النّور الساقط في الغرفة من الشارع.

عندما أنهت حوارها معك، خَرجت وتحدثتُ معها وأخبرتها عن كل ما رأيت. فنكرت كل شيء ونهرتني وإدعّت أنها تُحاول حساب بعض الإيصالات من الكهرباء والماء ومصروف المنزل!.. إنه لأمر مضحك حقًا، لا أحد يدفع هذه الفواتير في الحرب؛ لأن لا أحد يُطالبك بدفعها.

وبعد عدة أشهر، صارحتني بكل شيء.. قرأتُ الرسائل وكنتُ أقرأها أولًا بأوّل ليس لأنها كانت تُريني إيّاها، بل لأنها كانت تضعها في مكان مكشُوف يمكن رؤيتُه..

-عندما أُكمل رسالة سأضعُها على الطاولة، يُمكنك قراءتُها ولكن يجب عليك إرجاعها لمكانها.

-لماذا؟

-لماذا ماذا؟

-لماذا تريدينني أن أقرأها.

-لا أعرف!

لكنني عرفت، فقد كانت تُريد أن تراها مقروءة، تريد أن تشعر بأنك قرأتها وأحسست بها.

في الفترة الأخيرة إنفصلت عن الواقع حقًا تصرفاتها أصبحت مُريبة ومُخيفة جدا.

كنت ألتقطها الواحدة تلو الأخرى، أقرأ و أقرأ و أُعيد القراءة وإن كانت الرسائل قصيرة وإن كانت مليئة ببعض الخواطر المريبة.. لكنني أُعيد وأعيد حتى أشعر بالملل وأتوقف.

لم أستطع صبرًا و وددتٌ لو تسمح لي بمساعدتها، فطرحتُ عليها فكرة نشر رسائلها في الصُّحف لعلّك تكُون جالسًا في إحدى الشوارع أو يتعرف عليك من في المستشفى إذا كنت فاقدًا لذاكرتك مثلا! سيرونك ثُمّ يساعدونك على العودة. لكنها قالت لي بأنك لا تقرأ الصحف، ولا أحد يقرأها الأن.

فطرحتُ عليها فكرة نشرها في مواقع التواصل الإجتماعي، أُعجبت بالفكرة وبدأنا حقًا بنشرها الواحدة تلو الأخرى.

ولكنها في إحدى الليالي، جائتني تُطالبني بالتوقف عن النشر، لم أكن أعرف لماذا! إلى أن أخبرتني بأنها فقدت كل قدراتها على الكتابة وبأن رأسها أصبح ممتليء بضجيج أُناسٍ لا تعرفهم، وأنها عندما تبدأ بالكتابة ترى عيونًا تُحملق من وراءها تقرأ الكلمات منتظرة ماذا ستقدّم من جديد.

قبل رحيلها قالت لي:

-إحذفهم إن إستطعت.

قمت بإزالة كل شيء وتوقفت تماما عن النشر، سألني البعض عن السبب وتحججت بظروفٍ خاصّة، لم أستطع إخبارهم بالحقيقة.

وهاهي الأن تُغادرنا فجأة، كل تلك التخيلات كانت بوادر مرض كان قد أصابها قبل وفاتها بعدة أشهر لم نكن نعلم شيئًا عنه إلى أن سقطت في الغرفة بدون أي حس.

سكتة دماغية أخذتها منا حين غفلة، أخبرني طبيبها النفسي بأنها حالةٌ ميؤوس منها وأنه حاول كثيرا إقناعها بالمضي في حياتها ولكنها كانت تتجاهله، قال لي في أخر لقاء لنا معا:

-جدتك ستموت يومًا من كثرة التفكير.

هذه المرأة عجيبة! رأسها الصغير يتحمّل كل هذه القدرة على التفكير والضوضاء! وحاولت أنا وبشتّى الطرق أن أقوم بإلهائها والتحدث معها، قمت بجمع بعض من صديقاتها وجاراتها في حفلات صغيرة نقيمها كل نهاية أسبوع بمساعدة أمّي بين الفينة والأخرى، كنت أحاول أن أسعدها كثيرًا وأن أعوّض عنها مافقدته. لكنها كانت تحضر معنا جسدًا فقط تحرّك أجفانها وتوزّع الإبتسامات في وجوه الحاضرين، وتُلقي القُبل على أخاديد الأطفال الصغار ولكن روحها كانت غائبة عنّا تمامًا، وأقرأ ذلك في عينيها وإن كانت تُحاول تخبئة ذلك عنّا أجمعين.

ها أنا أنشر هذه الرسائل إلا بضعها اليوم.. فلتعذرني جدتي وتُرسل لي بركاتها فالذنب ليس ذنبي.

الموت أخذك منّا فجأة ولم تسنح لي الفرصة لمشاورتك وأخذ رأيك بالموضوع، والسلام لروح الخال البعيد إن كان فوق الأرض أم تحتها، وليرحمني الله وليصفح لي عن فعلتي هذه.

في نهاية الطريق

فاليحزم الجميع أمتعته

ولنضعها في الحقائب الصغيرة

لا تتركوا شيئًا ورائكم

ضعوا كل شيء

لانريد أثرًا ورائنا

فالنقفل هذه الحقائب

ولنضعها جميعًا في تلك الحقيبة الكبيرة

تلك! نعم.. تلك في نهاية الرواق

في نهاية الطريق

أقفلوا الحقيبة وإتبعوني

أقفلوها جيدًا

لا نريد أثر.

فلنرمها معًا من فوق السفينة

ولننتظر حتى نراقبها

ننتظر حتى نرى تلك الفقاقيع الصغيرة المتكونة على سطح الماء

فالننتظر قليلًا.

حتى نرى شبحها غارقٌ تمامًا

في نهاية الطريق

لن يذكر أحد ما كان في الحقيبة

لن يذكر أحد تلك الأرواح الصاعدة للسماء

لن يذكر أحد الصناديق الغارقة

لن يذكر أحد رصاصات الفرح

لن يذكرنا أحد

لن يذكرنا أحد.